زرياب المغنى

للأستاذ عبد الحميد العبادى

- ٢ -

إذا قدر للأندلس أن يكتب تاريخها الفنى والاجتماعى ، فلا شك أن أنضر صفحة فى ذلك التاريخ المجيد وأعجبها تكون صفحة أبى الحسن على بن نافع المغنى الملقب بزرياب. فهو رجل استطاع وحده أن ينقل أمة بأسرها من حال البداوة الى حال الحضارة . وذلك بشيئين اثنين : تحبيب الموسيقى اليها ، وتنظيم حياتها اليومية .

* * *

فتح المسلمون الأندلس فى العقد الأخير من القرن الأول الهجرى ، وانتشرت قبائلهم العربية والبربرية فى بسائطها وحزونها ولكنهم ظلوا حتى أواخر القرن الثانى بداة جفاة كلما اجتمعت كلمتهم لم يلبثوا أن تفرق بينهم الأحن والعداوات المنبعثة عن العصبية القبلية ، فكأنهم لا يزالون ضاربين فى هضاب نجد وسهول تهامة ومفاوز افريقية . ثم أخذت شئونهم السياسية تستقر وتتسق بفضل مجهودات المتقدمين من أمراء الدولة الأموية الأندلسية : عبد الرحمن الداخل ، وهشام ، والحكم ، وعبد الرحمن الأوسط . أما الأحوال الاجتماعية فظلت على ما كانت عليه فسادا واضطرابا .

وعلى العكس من ذلك كان المشرق الاسلامى فى ذلك الزمان فقد استبحر فيه العمران وبلغت المدنية الاسلامية فيه غايتها ، وتعلق فيه ذوو الدعة واليسار بأسباب الكمالى من شئون الحياة ، بعد أن استكملوا الضرورى ، والحاجى منها على حد تعبير ابن خلدون . وقد ساعدهم فى ذلك عامل الدين وعامل التاريخ معاً فاما المعتدلون منهم فكانو يستندون الى أن الدين الاسلامى دين يسر يحب من المؤمن أن يكون هينا لينا موفور الحظ من الظرف والكياسة غير فظ ولا غليظ القلب ، ولا ناس نصيبه من الدنيا . وأما المتطرفون فوجدوا فى تقاليد الفرس والروم الاجتماعية ما جعلهم يؤثرون العاجلة ويحرصون على لذة الحياة الدنيا ومتعها ، أيا كانت الطرق الموصلة اليها .

وقد تألفت من هؤلاء وهؤلاء طبقة ارستقراطية ، مرهفة الأذواق ، رقيقة الطباع ، ترى فى الموسيقى ، ومجالس الأنس والطرب ، وحفلات السمر خير ما ينقعون به غلة تلك الأذواق المرهفة والطباع المترفة . هذا هو السبب المباشر فى تقدم صناعة الغناء فى ذلك الزمان ، وبلوغها الغاية على أيدى ابراهيم المهدى ، وابراهيم الموصلى ، وابنه اسحاق . وهذا هو السبب كذلك فى استفاضة مجالس الأنس والطرب لذلك العهد فى مدن الشرق الأسلامى عامة وبغداد خاصة ، وفى بلوغ هذه المجالس درجة من التأنق يمكن تصورها إذا عرفنا أنهم وضعوا لها آدابا كانوا يأخذون بها من يحضرها من الندماء ، والجلساء ، والسمار .

من ذلك أن يكون الغناء قوامها ، وأن يحتفل لها بلبس الثياب المصبغة الأنيقة ، وأن يزين المجلس بالأزهار والرياحين ، والا يحضرها إلا من كان مهذباً ، خفيف الروح ، حاضر البديهة ، قادراً على قول الشعر وارتجاله ، فضلا عن تذوقه وروايته عند ما يقتضى المقام ذلك .

الى هذا المشرق اتجه أمراء بنى أمية الأندلسيون ، وهم أبناء خلائف دمشق ورصافتها ، يستهدونه فنانين ومعلمين يهذبون ما غلظ من طباع العرب والبربر والمولدين ، وينظمونها جميعاً فى نسق واحد . وقد أهدى المشرق الى المغرب غير واحد من المغنين أمثال علون ، وزرقون ، ولكن زريابا كان أعظم هؤلاء جميعا وأبعدهم أثراً .

* * *

كان أبو الحسن على بن نافع مولى للخليفة المهدى العباسى ، ولسواد لونه ، وحلاوة شمائله لقبوه بزرياب تشبيها له بطائر أسود غرد يعرف عندهم بهذا الاسم . وقد تكاملت لزرياب كل أسباب النبوغ والتفوق موهوبها ومكسوبها ، فكان شديد الذكاء ، لطيف الحس عارفا بالنجوم والجغرافية ، شاعراً فصيح الشعر . غير أنه كان الى الغناء أميل وبه أشغف ، وقد درسه علما فى كتب الأقدمين من حكماء اليونان ، وعملا على استاذه اسحق الموصلى زعيم المغنين فى ذلك الوقت ، ولشدة افتتان زرياب بالموسيقى كان تفكيره فيها لا يكاد ينقطع حتى أنه ليلهم النوبة والصوت وهو نائم ، فيهب من نومه مسرعا ، ويقيد ما وقع له أو يلقيه على جاريتيه غزلان وهنيدة ، ثم يعود الى مضجعه عجلا ، ومن ثم قيل انه كان يأخذ ألحانه عن الجن كما قيل فى ابراهيم الموصلى نفسه. قالوا وكان يحفظ عشرة آلاف مقطوعة من الأغانى بالحانها . ولم يأل زرياب جهداً فى أن يأخذ نفسه بالأدب الرفيع والسلوك العالى المصطلح عليه فى البيئة التى كان يعيش فيها ببغداد ، بيئة البلاط وقصور الأمراء ورؤساء الدولة العباسية .

ويذكرون أن السبب فى هجرة زرياب من المشرق الى المغرب ، انه غنى يوما فى حضرة هارون الرشيد ، فأخذ الخليفة

بصناعته وظرفه وطلب الى اسحق أن يغنى به حتى يفرغ لسماعه . ولكن اسحق لم يلبث أن تحركت فى صدره عوامل الغيرة والحسد والحقد على تلميذه ، فخلا به وخيره بين الموت والحياة ، بين أن يقيم ببغداد فيعرض حياته للهلاك ومهجته للتلف ، وبين أن يذهب فى أرض الله العريضة فينجو بحياته ، ووعده اذا هو اختار ثانى الأمرين أن يعينه على الرحيل بما شاء من المال ، وغير المال . فاختار زرياب الرحيل عن المشرق بأسره ، ووفى له اسحق بما وعده به من المعونة .

وتذكره الرشيد بعد أن فرغ من شغله الذى كان منهمكا فيه وطلب الى أسحق أحضاره فقال « ومن لى به يا أمير المؤمنين ؟ ذاك غلام مجنون يزعم أن الجن تكلمه وتطارحه ما يزهى به من غنائه ، فما يرى فى الدنيا من يعد له ، وما هو الا أن أبطأت عليه جائزة أمير المؤمنين ، وترك استعادته ، فقدر التقصير به والتهوين لصناعته ، فرحل مغاضبا ذاهبا على وجهه مستخفيا عنى ، وقد صنع الله تعالى فى ذلك لأمير المؤمنين فانه كان به لمم يغشاه ويفرط خبطه ، فيفزع من رآه » . يقول المقرى « فسكن الرشيد الى قول اسحق وقال على ما كان به ، فقد فاتنا منه سرور كثير »

* * *

خرج زرياب يؤم المغرب ، فلما كان بافريقية اتصل بصاحبها زيادة الله الأغلبى . ولكنه لم يطب له المقام بها فرحل عنها الى المغرب الأقصى ، وهنا كتب الى الحكم بن هشام ، أمير الأندلس المعروف بحبه للموسيقى ، يستأذنه فى دخول الأندلس والصيرورة اليه ، فأذن له الأمير فى كل ذلك من فوره . وعبر زرياب البحر الى عدوة الأندلس ، وبينما هو يتأهب للرحيل الى قرطبة اذ سمع بوفاة الحكم فهم أن يعود أدراجه الى المغرب لولا أن كتب اليه الأمير الجديد ، عبد الرحمن الأوسط ، يستقدمه ويعده ان ينيله كل ما تصبو اليه نفسه من مال وجاه . فقدم عليه زرياب ، ويروون أن عبد الرحمن احتفل لمقدمه أعظم احتفال اذ خرج بنفسه من قرطبة لتلقيه . وما هو الا أن سمع غناءه وحديثه حتى شغف به فغمره بفضله وانعامه وأجرى عليه من الرواتب والارزاق الشىء الكثير ، حتى لقد كان يركب وبين يديه مائة مملوك . وقدمه الأمير على سائر المغنين وبلغ من شدة شغفه به أن جعل فى قصره باباً خاصاً يستدعيه منه كلما أحب سماع غنائه الرائع وحديثه العذب الطريف .

وقد لقى زرياب النعمة بمثلها وجزى المعروف بالمعروف ، ولكنه قصد الى ذلك من طريق غير مباشر ، قصد اليه من طريق النصح والاخلاص للاندلس التى أصبحت له وطنا ، وأهل الأندلس الذين أصبحوا أهلا له ومعشراً . فعكف على رفع مستوى الموسيقى الاندلسية وعلى النهوض بالمجتمع الاندلسى حتى يدانى المجتمع الشرقى ببغداد وقد وفق فيما قصد اليه كل التوفيق .

* * *

يمكن القول بأن زرياب نهض بالموسيقى الشرقية نهضة جديدة مطبوعة بطابعه وذلك بما أدخله على العود من اصلاح وتحسين ، وبما استن من طرق جديدة فى القاء الغناء وتعليمه . فقد اتخذ لنفسه وهو بالمشرق عوداً جعله على الثلث من وزن العود القديم ، وصنع أوتاره من حرير لم يغزل بماء سخن يكسبها أناثة ورخاوة ، واتخذ بمها ومثلثها من مصران شبل أسد « فلها فى الترنم والصفاء والجهارة والحدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها » . فلما كان بالأندلس زاد أوتار العود الأربعة المقابلة للطبائع الأربع وترا خامسا يقوم مقام النفس من الجسد ، فاكتسب به عوده ألطف معنى وأكمل فائدة كما يروى المقرى . واتخذ مضراب العود من قوادم النسر بدلا من مرهب الخشب « وذلك للطف قشر الريشة ونقائه وخفته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته اياه » . وأما من حيث القاء الغناء فقد رسم زرياب أن يبدأ فى الالقاء بالنشيد بأى نقر كان ، ثم يؤتى فى أثره بالبسيط ويختم بالمحركات والأهزاج . أما مذهبه فى تعليم الغناء فيقول فيه المقرى « وكان اذا تناول الألقاء على تلميذ يعلمه أمره بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة ، وأن يشد صوته جدا اذا كان قوى الصوت ، فان كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة فان ذلك مما يقوى الصوت ولا يجد متسعا فى الجوف عند الخروج على الفم فان كان ألص الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق ، راضه بأن يدخل فى فيه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع ، يبيتها فى فمه ليالى حتى ينفرج فكاه . وكان أذا أراد ان يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره ان يصيح بأقوى صوته ياحجام ! او يصيح آه ! ويمد بها صوته ، فان سمع صوته بها صافيا نديا قويا مؤديا لا تعتريه غنة ولا حبسة ولا ضيق نفس ، عرف ان سوف ينجب وأشار بتعليمه ، وان وجده خلاف ذلك أبعده » . هذه العبارة تشير فى صراحة الى ان زرياب أنشأ بالاندلس فى أوائل القرن الثالث الهجرى ما يصح أن نسميه بلغة الوقت الحاضر معهدا لتعليم الموسيقى الشرقية .

ولم يكن زرياب أقل ابتكارا فى شئون الحياة اليومية منه فى

مجال الموسيقى والفن . وهذا محل العجب من سيرته . فقد ابتكر لأهل الاندلس ألوانا من الطعام استطابوها ونسبوا بعضها اليه ، وعلمهم أن يشربوا من آنية الزجاج الرقيق بدلا من آنية المعدن ، وهو أول من اجتنى لهم البقلة الشهية المعروفة بالهليون وكانوا لا يعرفونها من قبل ، وعلمهم أن يبسطوا فوق ملاحف الكتان أنطاع الأديم اللين ، وان يبسطوا سفر الأديم فوق الموائد الخشبية فذلك أنظف لها وآنق لمنظرها . وعلمهم أن يلائموا بين ما يلبسون وبين فصول السنة الأربعة ، فيتدرجوا من الخفيف الأبيض صيفاً الى الثقيل الملون شتاء . ولفتهم الى أنواع من الطيب والعطر لم يلبثوا أن أقبلوا عليها وفضلوها على ما كانوا يتعطرون به من قبل ، كما علمهم كيف ينظمون شعورهم تصفيفا وتدويرا وأرسالا .

* * *

لا ندرى بالدقة متى توفى زرياب والغالب ان وفاته كانت فى أمارة الامير محمد بن عبد الرحمن الاوسط (٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) وكما رزق زرياب الحظوة عند اهل الأندلس فى حياته فقد رزقتها ذكراه عندهم بعد مماته. ذلك بأن مذهبه فى الغناء ومارسمه لهم من أسلوب المعيشة ظل باقيا متوارثا فيهم حتى آخر أيامهم. فلما انتهى امر الاندلس وخرج من تبقى من أهلها إلى بلدان افريقية الشمالية انتقل اليها بانتقالهم متدار غير قليل من صناعة زرياب وآدابه . يقول ابن خلدون عند ذكره زرياب « فأورث بالاندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى ازمان الطوائف وطامنها بأشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة بافريقية والمغرب وانقسم على أمصارها وبها الآن منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها » ويقول المقرى « وكان زرياب قد جمع الى خصاله هذه الاشتراك فى كثير من ضروب الظرف وفنون الآداب ولطف المعاشرة وحوى من آداب المجالسة وطيب المحادثة ومهارة الخدمة الملوكية مالم يجده أحد من أهل صناعته حتى اتخذه ملوك اهل الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه واستحسنه من أطعمته فصار الى آخر أيام أهل الأندلس منسوبا اليه معلوما به »

* * *

كان أهل رومية القديمة على عهد نيرون يلقبون سريا من سراتهم اسمه بطرونيوس برب الظرف وسلامة الذوق لأنه كان عندهم مضرب المثل فى ذلك . أما أهل الأندلس فقد وصفوا زرياب بأنه « معلم الناس المروءة » وهو لاشك أجمل وصف يوصف به وأحقه بأن يحفظه عليه التاريخ ويذكره به ؟

عبد الحميد العبادى

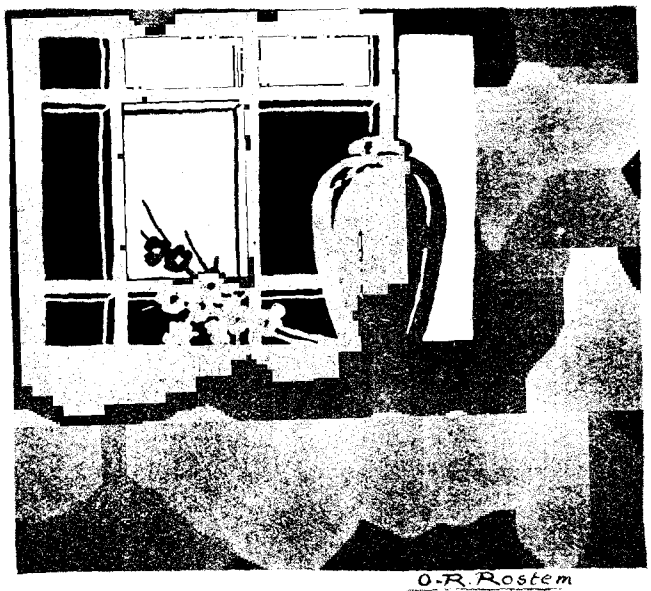

الزهرية العاطلة

للأستاذ راشد رستم

لا أجد هنا من يضع لى الزهر فى غرفتى ، وأنا الذى أحب الزهر قريباً منى ، أضمه الى صدرى حنيناً ، وأشمه لتسمو به روحى بعيداً ، أحب العطر منه ، وأحب العطف عليه .

ليس غيرى اذن يضع الزهر لى فى غرفتى ، بل أختاره بنفسى وأرعاه وحدى

واليوم اشتريت من الزهّارة الفتيـــة الناضرة ، باقة من ذلك الزهر الذى تحبه . . . . . « روحى »

لم تدر فتاة الزهر الجميلة لماذا سألتها السماح لى اليوم أن أنتقى بيدى أنا تلك الزهرات الحبيبة التى سأجعل منها وحدها دون غيرها ، حديقتى فى هذا اليوم .

سكتت فتاتى الحسناء راضية ، وتنحّت هادئة ، ونظرت الىّ فى سرور وابتسام وعجب ! . ولِمَ تعجب ؟ ومن عاشر الزهر لا يغضب .

* * *

لم ترنى الفتاة قبل اليوم ألمس أزهارها بيدى ، انما أشير اليها بالطرف وهو كليل فتفهم منى قصدى ، وتجمع لى زهراتى المختارة ، تنتقيها من بين اخواتها برشاقة فى حنو وعطف